

تفسير ابن كثير

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشا أي مهدا كالفراش مقرر موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال في الآية الأخرى { وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون } { وأنزل لكم من السماء ماء } والمراد به السحاب ههنا في وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى : { الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين } ومضمونه : أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال : { فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون } وفي الصحيحين [عن ابن مسعود قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال : أن تجعل ندا وهو خلقك] الحديث وكذا حديث معاذ أتدري ما حق الله على عباده ؟ [أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا] الحديث وفي الحديث الآخر [لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان] وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخي عائشة أم المؤمنين لأمها قال : رأيت فيما يرى النائم كأنني أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم ؟ قالوا نحن اليهود قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وما شاء محمد قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أنتم ؟ قالوا نحن النصارى قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرتها بها من أخبرتها ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : هل أخبرتها بها أحدا ؟ قلت : نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : [أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده] هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح بن عبد الله الكندي عن يزيد بن الأصم [عن ابن عباس قال : قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ما شاء الله وشئت فقال : أجعلتني ندا ؟ قل ما شاء الله وحده] رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به هذا كله صيانة

وحماية لجناب التوحيد وإِ أعلم وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال إِبْنُ عَبَّاسٍ : { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَبِهِ عِلْمُ السَّاعَةِ } فلا تجعلوا إِبْنِ عَبَّاسٍ أندادا وأنتم تعلمون { أي لا تشركوا بإِ غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول صلى إِبْنُ عَبَّاسٍ عليه وسلّم من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم حدثنا أبو عمرو حدثنا أبو الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قول إِبْنِ عَبَّاسٍ : { فلا تجعلوا إِبْنِ عَبَّاسٍ أندادا } قال الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقولوا إِبْنُ عَبَّاسٍ وحياتك يا فلان وحياتي ويقول لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص البارحة ولولا البط في الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ما شاء إِبْنُ عَبَّاسٍ وشئت وقول الرجل لولا إِبْنُ عَبَّاسٍ وفلان لا تجعل فيها فلان هذا كله به شرك وفي الحديث أن رجلا قال لرسول إِبْنِ عَبَّاسٍ صلى إِبْنُ عَبَّاسٍ عليه وسلّم ما شاء وشئت قال : [أجعلتني إِبْنِ عَبَّاسٍ ندا] وفي الحديث الآخر : [نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون ما شاء إِبْنُ عَبَّاسٍ وشاء فلان] قال أبو العالية فلا تجعلوا إِبْنِ عَبَّاسٍ أندادا أي عدلاء شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقاتادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد وقال مجاهد { فلا تجعلوا إِبْنِ عَبَّاسٍ أندادا وأنتم تعلمون } قال تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل .

ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة .

قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعري أن نبي إِبْنِ عَبَّاسٍ صلى إِبْنُ عَبَّاسٍ عليه وسلّم قال : [إن إِبْنِ عَبَّاسٍ أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطئ بها فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهم وإما أن تبلغهن فقال يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي قال : فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعده على الشرف فحمد إِبْنُ عَبَّاسٍ وأثنى عليه ثم قال إن إِبْنِ عَبَّاسٍ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهم وآمركم أن تعملوا بهن أولهن : أن تعبدوا إِبْنِ عَبَّاسٍ ولا تشركوا به شيئا فإن مثل ذلك كمثله رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده فأيكسره أن يكون عبده كذلك وإن إِبْنُ عَبَّاسٍ خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وآمركم بالصلاة فإن إِبْنِ عَبَّاسٍ ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليت فلا تلتفوا وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثله رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند إِبْنِ عَبَّاسٍ من ريح المسك وآمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثله

رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم أن أفتدي نفسي منكم فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه وأمرهم بذكر الله كثيرا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا في أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحسن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله [قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :] وأنا آمرهم بخمس الله أمرني بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثي جهنم [قالوا : يا رسول الله وإن صام وصلى ؟ فقال :] وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله المسلمين المؤمنين عباد الله [هذا حديث حسن والشاهد منه في هذه الآية قوله : وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى وهي دالة على ذلك بطريق الأولى فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبائعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال : يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟ .

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوال والنعيمات وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى فقال لهم : دعوني فإنني مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا : هذا شيء لا يقوله عاقل فقال : ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع فقال : هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز فبينما هو كذلك إذا انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشده : .

(تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك) .

(عيون من لجين شاخصات بأحداق هي الذهب السبيك) .

(على قضب الزبرجد شاهدات بأن ا[] ليس له شريك) .

وقال ابن المعتز : .

(فيا عجا كيف يعصى الإله أم كيف يجده الجاحد) .

(وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد) .

وقال آخرون من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها ونظر إلى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى : { ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى ا[] من عباده العلماء } وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييج والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت وإليه أنيب والايات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جدا